الفصل الرابع

فتوحاتُ "أَدِرْنَه"..
من الخلوات إلى الجلوات

سياحةً يا رسول الله..!

الخلوةُ فِكْرٌ، والجلوةُ ذِكْرٌ، وبينهما تنتصب معارج الروح. ولا وصول إلى مدارجها إلا بالضرب في الأرض حتى مجمع البحرين! وللطريق عَقَباتٌ ووِهَادٌ، فللجبال تَعَبٌ وللصحراء لَهَبٌ! والسائر بينهما يَتَعَلَّى ويتدلَّى بين خفاء وجلاء، يتلذذ بالضنَى ويتغذى بالنَّصَب! ومن ظن أن بلوغ "مَاءِ مَدْيَنَ" يكون بغير سفر فهو واهم!.. فاحملْ مِزْوَدَكَ على عصاك يا قلبي وارحل!.. فعلى شاطئ الجوار الآمِن توجد منازل المحبين!

.....

بلاد الأناضول هي أرض السفر الأبدي..! فكل شيء فيها مجبول على الهجرة والترحال: الإنسان والحيوان والطيور والأسماك! مسالكها البرية والبحرية مسكونة برياح لم تزل تهب -منذ فجر التاريخ- على القلوب، فتهيجها على الرحيل، حتى إذا التهبت أشواقها سلَّمت للريح أجنحتَها وانطلقت! كانت الطيور منذ القرون الأولى تتجمع فوق جبال المناطق الشرقية، ما بين "وَانْ" و"بِتْلِيسَ"، حتى جبل أَرَارَات. وتتجمع أخرى بالغرب ما بين قباب إسطنبول وشواطئ إزمير، واستقرت أخرى بالشمال على امتداد جبال البحر الأسود، وأخرى بالجنوب ما بين بحيرات "إسبارطة" ومدينة أنطاكيا. حتى إذا نادى المنادي: "يا خيل الله اركبي..!" أقلعت الأسراب من هنا وهناك، وانطلقت تضرب بأجنحتها في الفضاء على خفق واحد، مَشُوقَةً بنداء الروح!

.....

"أَوليَا شَلَبِي" رحالة تركي شهير، عاش في القرن الحادي عشر الهجري. حكى في مقدمة كتابه: "سياحة نامه" أنه رأى رسول الله ρ في المنام يدخل أحد مساجد إسطنبول. اقترب منه وقبَّل يده الشريفة، ثم أراد أن يطلب منه الشفاعة يوم القيامة، لكنه -من شدة المهابة- ارتبك، فبدل أن يقول: "يا رسول الله شفاعة"، قال: "يا رسول الله سياحة!" قال: فتبسم الرسول ρ، ودعا له بالسلامة في جميع سياحاته!

ومن ثم لم تزل صيحة "أُوليَا شَلَبِي" الْحَرَّى صدًى يلقح الأشجار بكل الأناضول، ويغذي الريح السائح بالهيجان، فيطرق مغاور الشطآن وكهوف الجبال.. ولم تزل فراخ الصقور تستنشق من روحه العابر كل صباح، ما ينمي الريش بأجنحتها، حتى إذا تأهلت لمغادرة الأعشاش، صاحت:

- "سياحةً يا رسول الله..!" ثم انطلقت تضرب في الفضاء العالي!

.....

كان رامز أفندي يرى أن على ابنه فتح الله أن يغادر أرضروم برمتها، تلك كانت رغبته منذ زمان بعيد.. لكن أم الفتى كانت تضن به، وتشفق أن ترسله إلى متاهات بلاد الأناضول! كيف والزمن عصيب، والسيف مُصْلَتٌ على المؤمنين؟ لكن الأب كان يدرك أن أرضروم لن تسع عقل ابنه العبقري ولا روحه الوهاج؛ وإلا ضاعت بذرته الغالية في تربة قارسة! ومن ثم لم يزل يلح على أم الفتى بفكرته حتى لانت وقبلت!

فكانت تلك إشارة أخرى أومأت إلى فتح الله، بطبيعة مسلكه الشاق الطويل.. إشارة جاءت لتختم بشائر النور، التي أضاءت ليلتَه الخضراء بالمسجد الجامع. ولذلك ما أن تلقَّى رضا والدته حتى أدرك أن موعد الرحيل قد آن، فصاح من أعماق وجدانه الصامت:

- "سياحةً يا رسول الله!.."

وانطلق القطار نحو مدينة أَدِرْنَه، يبتلع أكثر من "أربعِ مائةٍ وأَلْفِ كيلومتر"! راحلا من أقاصي شرق تركيا إلى أقاصي غربها! لم يكن شيء في بدء الأمر يبدي حكمة سفر الفتى إلى هذه المدينة بالذات، سوى أن خال أمه "حسين طوبْ هُوجَا" كان يسكن هناك؛ فكانت والدته ترجو أن يكون تحت رعايته. لكن الأيام أبدت له أنما جاء أَدِرْنَه على قَدَرٍ معلوم! فصخرة معراجه العالي لم تكن سوى هذه المدينة الملتهبة!

ولذلك فإنه خرج ولم يعد! رغم أنه كان يخيل إليه بادئ الأمر أنما هي أيام يقضيها بأَدِرْنَه ثم يعود إلى أرضروم. لكن نداء السياحة كان أقوى من إرادته، فقد طوح به عاليا في معارج الروح. ولم يزل يهاجر إلى الله، ويسافر من حَزَنٍ إلى شَجَنٍ، ومن وَجَعٍ إلى أَلَمٍ، يداوي القروح بالجروح، ويضمد الأحزان بالأشجان، في رحلة لا تكاد تنتهي..!

كانت محطات القطار بالمدن الكبرى بالنسبة لفتح الله، منعطفات للاستراحة من وعثاء السفر، ومناسبة لطرق أبواب مدن أخرى بعصا سياحته الروحية. كانت أنقرة هي المحطة الأولى التي استهوت الفتى، فنزل بها لبضعة أيام، قصد التعرف على موعد الامتحان، الذي تنظمه رئاسة الشؤون الدينية للأئمة والخطباء. وخلال تلك الفترة جعل يتردد على حي كان يسكن فيه بعض أصدقائه. وقد أُعجب الفتى بالحي كثيرًا لما له من طابع روحي خاص؛ بسبب وجود المربي الزاهد الكبير الحاج بَيْرَام، الذي أحبه الفتى حبا كبيرًا. وهنالك زار أحد نواب البرلمان، اسمه "مصطفى زَرَنْ"، كان من أقرباء والده، فبات عنده ليلة واحدة، في أحد الأحياء الراقية من المدينة، فاطلع بذلك على وجوه مختلفة من معالم أنقرة. ثم استأنف مسيرة الأشجان.

إسطنبول هي المدينة الثانية الكبرى في الطريق إلى أَدِرْنَه. كان لا بد للفتى من التعرف عليها، ولذلك نزل بها، ثم مكث فيها أيضا بضعة أيام. كان يأوي إلى فندق صغير بحي "سِيرْكَجِي"، بسبب أنه كان مشهورا جدا عند الأرضروميين، لا يكادون ينزلون بغيره. إلى درجة أن كل من قصد إسطنبول منهم كان يُوصَى به. كان فندقا عاديا، أو قُلْ أقلَّ من عادي، إلا أنه كان الأنسب لأهل أرضروم الفقراء. كانت فرشه ووسائده بالية. وكانت ثُقَبُهَا وثناياها أعشاشًا للصراصير والبراغيث، وضروب أخرى من الحشرات الصغيرة! وكان الضجيج لا ينقطع ببهوه ومسالكه الليلَ والنهار! غير أنهم كانوا يصنفونه -في ذلك العهد- في الدرجة الثالثة! أما الفتى فلم يذكر أنه استطاع أن ينام الليل به من شدة الحك والْمَعْك!

متاعب الوصول

كان القطار ينطلق من إسطنبول بعد منتصف الليل، ولا يصل إلى أَدِرْنَه إلا في ساعةٍ متأخرة؛ ولذلك نام أغلب المسافرين بمجرد استوائهم على مقاعدهم! وغفا فتح الله معهم، ولم يزالوا نائمين حتى تجاوز القطار المحطة الرئيسية بمدينة أَدِرْنَه! حتى إذا انتهى إلى المحطة الأخيرة، جعل الموظفون يوقظون الناس لإفراغ القطار! فلما نزلوا وجدوا أنفسهم في خلاء بعيد، وعلموا أنهم مضطرون لقطع مسافة طويلة في اتجاه المدينة، فمشوا بأثقالهم على الأقدام زمنا!

ودخل الفتى المدينة على حين غفلة من أهلها.. فما أن وجد الفندق الذي يناسبه حتى أخلد إلى الراحة ونام. ولما كان الصباح وجد نفسه في

فندق مجاور لمسجد "الشرفات الثلاث" الأثري، وهو لا يدري آنئذ أنه المسجد الذي سيكون به إماما من بعدُ.

بدأ الفتى بالبحث عن خال أمه "حسين طُوبْ أفندي"، حتى إذا التقاه أكرمه ثم هيأ له مأوى مؤقتا بمسجد السلطان "بَايَزِيدَ يِلْدِرِم"، الذي كان حسين أفندي إمامه وواعظه. وعلم الفتى أنه للحصول على وظيفة دينية، لا بد من موافقة المفتي أو وكيل المفتي بالمدينة. وليس بأَدِرْنَه يومئذ مُفْتٍ، ومن ثم اصطحب الخالُ ضيفَه إلى وكيل المفتي "إبراهيم أفندي". فلما رأى الوكيل الفتى استهان به لصغر سنه، ولم يثق بقدرته على شيء مما أتى من أجله، فقال: "يجب أن أمتحنه!" وقَبِلَ الفتى على الفور، فأعطاه الوكيل كتابا من كتب الفقه، فتحه على إحدى الصفحات بصورة اعتباطية، وأمره بالقراءة، فقرأ الفتى، وكلما قرأ فقرة ترجمها إلى التركية! كان الانبهار والإعجاب يدق بقلب الوكيل، لكنه تحكم في ملامح وجهه كي لا يبدو عليه شيء من ذلك! حتى إذا أتم الشاب مقروءَه أمره الوكيل بالخروج من المكتب. وبعد قليل لحقه خاله حسين أفندي وهو يكاد يطير من الفرح! فقال له: أبشر! إن الوكيل قد أعجب بك جِدًّا، وشهد في حقك بقول عظيم، قال: "إن هذا الفتى ما يزال شابا يافعا، لكن يبدو أنه كَوَّنَ نفسه بشكل جيد". هذه العبارة سَرَّتْ حسين أفندي، لكن الفتى لم يَخْفَ عليه ما فيها من استعلاء وكبرياء!

ثم وُظِّفَ فتحُ الله بعدُ إماما ثانيا بمسجد "الصومعة البيضاء". فكان يصلي بالناس فيه ويعظ زمنا. حتى إذا حل موعد "امتحان الوعاظ" الذي تنظمه رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، سافر إليها لاجتياز الامتحان. وبعد أيام، طُلِبَ الإمام الشاب لإجابة الهاتف بمكتب الإفتاء في أَدِرْنَه، فإذا

به يجد قريبهم النائب البرلماني "مصطفى زَرَنْ" يحدثه من أنقرة: "ابنَ أخي، أُقَبِّلُ جبينَكَ، لقد نجحتَ في الامتحان، فهنيئاً!" وما أن بلغ الخبر الخال حسين أفندي، حتى جعل يبحث عنه بين الأزقة والأسواق، حتى إذا صادفه عانقه بحرارة وسط الشارع، وهو يقول له مرة أخرى: "أبشر فتح الله لقد فزت في الامتحان!"

ولكن بِقَدْرِ ما أفرح هذا الخبر الخال حسين أفندي؛ فقد أخاف وكيل المفتي وأثقل عليه! ذلك أن فتح الله كتب عريضة لرئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، يطلب فيها أن يعين مفتيا لأَدِرْنَه، إذ لم يكن بها سوى وكيل! بيد أن الجواب جاء سلبيا؛ معلَّلاً بعدم أداء الفتى للخدمة العسكرية، إذ لم تكن سنه تتجاوز السابعة عشرة حسب البطاقة الرسمية، وهي سن لا تمكنه من الانخراط العسكري، ولا تتيح له العمل الرسمي بوظائف الدولة. ولذلك فقد اضطر لمراجعة المحكمة قصد تصحيح تاريخ ميلاده، فصار عمره ثمانيةَ عشر عاماً.

ثم رَتَّبَتْ دَارُ الإفتاء بِأَدِرْنَه مباراة لإمامة المساجد الفارغة على مستوى المحافظة، ففاز فتح الله بالرتبة الأولى، وصار من حقه أن يُعَيَّنَ إماما بمسجد "الشرفات الثلاث" التاريخي، لكنَّ وكيل المفتي إبراهيم أفندي دافعه بشخص آخر، وقال له مستفيدا من الجواب السابق لرئاسة الشؤون الدينية: "صحيح أن درجتك هي الأولى في المباراة، لكنك ما أديت وظيفة التجنيد العسكري بعد، وهذا الرجل قد أداها، ولذلك فإننا نعتبركما بمستوى واحد، وسَنُعَيِّنُ أحدَكما بالقرعة!" لكن القرعة خيبت أمل الوكيل فَعُيِّنَ الفتى بالمسجد المذكور.

كان راتب الإمامة يومئذ هو مائتي ليرة. لكن فتح الله لما دعي إلى دار

الإفتاء ليتقاضى أجرته، وجد الراتب قد انتُقصت منه ثلاثون ليرة! وماذا بوسع إمام شاب يعيش غربة في الزمان والمكان أن يفعل؟ خاصة وهو الفتى الحيي الخجول، الزاهد في المال والمتاع.. ثم هو ما هاجر من أرضروم أصلا طلبا لرزق أو وظيفة، بل كان يحلم بأن يرفع راية النور خفاقة فوق المآذن والقباب، ويوصل خدمات الإيمان إلى أقصى الثغور. وفي تلك السبيل صرف فتح الله كل ما وقع بيده من نقود.

ابتلاء الكلمات، واقتحامُ العَقَبَاتِ

أَنْ يبلغ العبدُ مقامَ الإمامة بحق؛ لا بد أن تلتهب أضلاعه بكلمات الابتلاء، يكتوي بهن الواحدة تلو الأخرى. حتى إذا أتممهن جُعِلَ للناس إماما، وإلا كان في أحسن أحواله من التابعين. و"الكلمة" في هذا المسلك ليست قولا يقال فحسب؛ بل هي فعلٌ ملتهب، وعَقَبَةٌ بركانية متفجرة، وامتحان عسير، تسير الأقدام فيه على حد السيف، وتُحَرَّقُ فيه القلوب بنار التخلية والتحلية. ولذلك كثر في الدنيا التابعون المقلدون، وقل الأئمة المجددون.

وفي مدينة أدرنه وجد فتح الله نفسه مَعْنِيّاً بهذا الْمَقام، فإما أن يكون إماما وإلا فليس له بها مُقام! هذا قَدَرُهُ، والخطب عظيم، وليس له إلا أن يتقدم، فلم يعرف في حياته قط أن يخطو إلى وراء، ولو من أجل خطوتين إلى الأمام! ولِمَ لا؟ فهو لم يزل مُذْ عَقِلَ يرتل ميثاق العهد، ويبكي: "فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَة!" "فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَة!"

وتوالت كلمات الابتلاء تتهاطل على رأسه تترى! فلا يكاد يخرج من

نار حتى تلفحه نار! لكنَّ الغيث كان يبلل جوانحه برداً وسلاما! فيزداد إيمانه قوة في مواجهة النار، وتشتد عزيمته على اقتحام لهيب العقبة بعد كل عقبة!

العقبة الأولى: جروح أَدِرْنَه..!

أَدِرْنَه لها في تاريخ تركيا قصة أخرى!

أَدِرْنَه دار الشياطين! أَدِرْنَه مهد المجاهدين! أَدِرْنَه مأوى الفاسقين! أَدِرْنَه عاصمة الفاتحين! أَدِرْنَه ملتقى الساقطين! أَدِرْنَه معراج السالكين!

أَدِرْنَه مدينة غير عادية، لم يزل عمرانها يتربع على موقع استراتيجي مهم، في أقصى غرب القطاع الأروبي من تركيا، على حدود دول البلقان، وخاصة بلغاريا واليونان بحيث تترآى بها ليلاً أضواء المصابيح من مباني المدن والقرى المجاورة بالدول الأخرى!

أَدِرْنَه بموقعها "الجيوسياسي" ذاك، تُذَكِّرُ المسلم البصير اليوم بالتاريخ الذي كان! فأي مؤمن -حق مؤمن- يدخلها اليوم ولا يشعر بسياط الأسى تنهال على ظهره وفوق كتفيه؟! مدينة محروسة بالله... وكأن قبابها ومآذنها خوازيق من حديد تمنع زلزال التاريخ، وانجراف الجغرافيا! فخلف حدودها هناك بأرض الآخرين، مدائن وقرى للمسلمين في بلغاريا وما جاورها، لم يزل الأذان بها يستمد نشيجه الحزين من استغاثة المرأة العباسية بأرض الروم: "وامعتصماه!" فيتردد الصدى بكل جبال الأناضول: "وامعتصماه! وامعتصماه!" أولم يكن ممكنا أن تكون أَدِرْنَه هي أيضا داخل مآتم الأسر الأليم؟ فأي نعمة هذه التي تغرق قلب العبد وهو يدخل أَدِرْنَه اليوم آمنا مطمئنا؟! وأي لطمة شديدة يتلقاها وهو يدرك أنه وارث ضعيف غير

مكين؟! وإلا فما بال مسجد السليمية يشكو بَثَّهُ وحزنَه إلى الله، وينادي عبر مآذنه الأربع عند كل صلاة: "حيَّ على الجراح! حيَّ على الجراح!" وليس يسعفه أحد؟

أَدِرْنَه عاصمة الجهاد، وعرين الأسود والأشبال! بها ولدت بشرى الرسول ﷺ: السلطان محمد الفاتح، فاتح إسطنبول! "فنعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها!" وصَدَّقَ التاريخُ النبيَّ محمداً وهو المصدَّق في الأرض وفي السماء! فعليكَ الصلاة والسلام يا سيدي يا رسول الله! ولأَدِرْنَه بعد ذلك أن تفخر بانتصاب ربوتها مهداً لبشارة الرسول!

لم تكن العواصم التي اتخذها خلفاء الدولة العثمانية الأوائل، سوى محطات عسكرية للجهاد في سبيل الله! ولم تكن زينتهم ونياشينهم سوى تروسهم وسيوفهم! ولم تكن عروشهم سوى ظهور خيولهم، ولم تكن معازفهم العسكرية سوى قوارع التكبير والصهيل! انطلقوا أولا من مدينة "مَنِيصَا" بالجنوب الغربي من بلاد الأناضول، كانت هي مَهْدَ قبيلتهم وحمى عشيرتهم. ثم تقدموا في غزو الروم مجاهدين؛ ففتحوا مدينة "بُورْصَا" في الشمال الغربي من البلاد، فصارت هي عاصمتهم الأولى، وبها أسسوا دولتهم. ثم استمروا في الجهاد حتى فتح الله لهم مدينة "أَدِرْنَه" في القارة الأروبية! سنة ٧٦٣ هـ، فجعلوها عاصمة جديدة لهم، واستمرت المدينة أميرةً نحو قرن من الزمان! حتى جاء السلطان الشاب محمد الفاتح، ففتح الله به القسطنطينية، أي مدينة إسطنبول! فصارت هي عاصمة العواصم، ووارثة الأمجاد والمكارم. وارتفع رأس الخلافة الإسلامية عاليا في سماء التاريخ! ولم تزل راية الإسلام بعدها تغزو شرقا وغربا، ولم يزل بذلك نصر الله يبشر بالفتح المبين في كل مكان! إلى أن تقاعس السلاطين

المتأخرون عن اقتحام القمم الرواسي، وأخلدوا إلى نعيم القصور وزينة الكراسي؛ فرفع الله مُلْكَهُ! ومنع نَصْرَه! ثم تداعت الأمم على قصعتها! وجرى دم الخلافة نزيفاً يمزق القلوب في كل مكان!

ومن ثَمَّ كان لأَدِرْنَه في قلب الشيطان حقد دفين، وثأر قديم! فهي مولد محمد الفاتح، فيها نشأ وفيها تربى، ومِنْ عَلَى رُبَاهَا كان ينطلق لحصار القسطنطينية، حتى انتزعها من بين أضراس الروم انتزاعا! كما انتزع أجدادُه أَدِرْنَه منهم انتزاعاً! فما أن تمزقت بردة الخلافة حتى غرز فيها الشيطان مخالبه، فهتك حجابها، ودنس عرضها!

صارت أَدِرْنَه بعد ذلك مزارع لعنب الخمر، وسوقا للرذيلة، زاحمت الخمارات المساجد وطوقتها من كل مكان! وتدفقت خراطيم مصانعها النجسة في بطون السكارى، بما لم يعرف له مثيل في تركيا كلها! وترامت النفوس الرديئة على كثير من أحيائها، فأفسدوا البلاد والعباد بعاداتهم السيئة! يشربون ويرقصون ويسرقون! كما صارت مهجرا لكثير من المسلمين الهاربين من دول البلقان، الذين جاؤوها بما حملوه معهم من عدوى الانحلال الخلقي! ولوقوع المدينة على حدود دول الغرب فقد صارت معبرا للسياح القادمين إلى تركيا عبر البر. فاجتمع على هذه المدينة من البلاء ما لم يجتمع على غيرها! وعاش أهلها بُعَيْدَ سقوط الخلافة الإسلامية مرحلة عصيبة من الانهيار الخلقي بكل أشكاله! إلى أن استيقظ شبابها -في ستينات القرن الميلادي العشرين- على صيحات الإصلاح الديني!

وهالَ فتحَ الله ما رأى بها من فظاعة الجهل بالدين لدى أئمة الدين! ومن خيانة لحقوق الله لدى المكلفين رسميا بحمايتها! إلى درجة أن

فِناءات بعض المساجد قد صارت وكراً للفحشاء! أما الشوارع والأسواق فقد نافست أوروبا في خلاعتها. بنات المؤذن أو الإمام هن اللواتي كن يَفُزْنَ بالدرجة الأولى في مسابقات الرقص! وصارت القوامة الدينية وظيفة لا علاقة لها بالعبادة! حتى إن بعض المؤذنين لم يكن يصلي أصلا؛ وإنما كان يقيم الصلاة للناس من داخل مقصورة المؤذنين، حتى إذا سمع تكبيرة الإمام بالإحرام غادر المسجد، مسرعاً نحو وفود السياح الأجانب، ليجول بهم في فناء المسجد وفي محيطه الخارجي؛ لقاء بضع ليرات! ثم يعود مسرعا إلى المسجد قبل السلام؛ ليقرأ الأذكار والتسبيحات على المصلين! كل ذلك وغيره، ولا من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر!

لقد كانت الحدود الغربية لتركيا تنهار! وكانت مآذن مسجد الشرفات الثلاث تدور حول نفسها بقوة غضبية! عساها تنفض العار الذي أحاط بالبلاد! وحول أركانه كان طيف سلطان الأولياء وولي السلاطين، الخليفة العثماني المجاهد مراد الثاني، يجول مغموما، وهو يبكي مآل المسجد الذي بناه بحجارة متوضئة! ولم يزل خَلَفُهُ ووارث سره ابنه "محمد الفاتح" ينظر إلى الأفق البعيد؛ ويصيح في وجدان الزمان لبدء فتح جديد!

أما مسجد السَّلِيمِيَّةِ فقد كانت قبته العظمى تهتز كأنها جان! ملوحة بأطراف صوامعها الأربع، وكأنها نسر يهم بالطيران! وللشيخ المعلِّم "مِعْمَار سِنَان" بكاء يمتد صداه الحزين مع كل مقطع من الأذان! رثاء لأعظم إبداع نحته يداه على هيئة الشوق الضارع إلى الله! فآهٍ عليك يا عاصمة الفاتحين!.. ويا مدينة الأولياء! أي شيطان هذا الذي ألقى بك في مستنقع النجاسة حتى الغرق؟! فَوَامُعْتَصِمَاهُ وَامُعْتَصِمَاهُ!

ولم يزل الصدى يتردد بالنداء حتى جاء "فتح الله!"

كانت البداية صعبة جداً على الفتى.. فتخيلْ كيف ستكون معاناة شخص متدين، قَدِمَ من بلد شديد المحافظة، والرعاية للفضيلة والأخلاق مثل أرضروم، إلى درجة أن أهلها كانوا لا يُؤَجِّرُونَ بيتا لأعزب ليحل بمدينة فقدت كل معاني العفة والحياء إلى درجة أن أوانسها وعوانسها كن يعتدين على الرجال بالكلام الساقط في الأزقة والدروب، على عكس سُنة الفسق في التاريخ البشري!

العقبة الثانية: امتحان يوسفي!

ما أن استقر الوضع المادي للفتى نسبيا، حتى شرع في البحث عن بيت للإيجار. وسكن منزلا بخمسين ليرة شهريا. بيت صغير وجميل له حديقة. فَسُرَّ فتحُ الله بانكشاف الغمة، وعزم على استئناف الدرس وتجديد الهمة. ولكنه لم ينتبه إلى أن المنزل محاط بجحور الأفاعي! فقد كان موقعه في زقاق مسدود، وكان بابه آخر الأبواب. وكان الفصل صيفا، وللحرارة تأثير على كل شيء، فَتُخْرِجُ إلى الناس كل ما يُخشى خروجُه! فعلى طول الزقاق كان نسوة الحي يقضين أوقاتهن على أرصفة الدرب، من أول النهار حتى وقت متأخر من الليل! وكن يجلسن متبذلات! فأدرك الفتى أنه وقع في حرج عظيم! فليستطيع الوصول إلى بيته كان مضطرًّا للعبور بينهن، فكان في كل خطوة يشعر كأنما يطأ على الجمر! وعيون صواحبات يوسف ترميه بسهام الإغراء من كل جوانبه! فيتدفق عليه العرق من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه! حتى إذا وصل بيته وجد نفسه وكأنما هو خارج من حمام!

وبقي على هذه الحال لمدة خمسة عشر يوما. حتى إذا يئسن من

استجابته وكَسْرِ صخرة ثباته؛ تجرأت عليه الأوانس بكلمات لاسعة، مستفزات إياه بما لا قِبَلَ له بسماعه! فيفزع الفتى مسرعا نحو بيته، وهو يتحرق ألماً ما بين لهيب الأسى وجمر الخجل! ثم لا يكاد يجد بعد ذلك للنوم سبيلا؛ حَزَناً على سقوط مدينة المتطهرين في درك العفن! فلما كان اليوم الموالي خرج قبل الفجر ولم يعد إلا بعد منتصف الليل! وبقيت تلك عادته حتى نهاية الشهر! فلقي في ذلك من العنت ما الله به عليم.. فليل الصيف ليلٌ قصير، سرعان ما يكشفه ضوء الفجر؛ فلا يبقى للفتى من لحظات النوم إلا مقدار ساعتين فقط! ثم يخرج للصلاة بالناس! فوجد نفسه يدفع نقود الكراء بلا فائدة، إضافة إلى المسافة الطويلة التي كان يقطعها نحو البيت مشيا على قدميه؛ ومن ثَمَّ جمع متاعه القليل، ثم التحلق بمسجده "ذي الشرفات الثلاث".

نظر الفتى من داخل المسجد إلى أعمدته وزواياه، نظرات باكية تنطق بالاستغاثة وتطلب الجوار! فبدت له إحدى نوافذه الكبرى وكأنها ترحب به، فارتمى إليها بوجدان جريح، أتعبه لهيب الأزقة المتعفنة! فما أن دخلها وأغلق عليه أبوابها؛ حتى شعر بجوانحها تحتضنه، وتضمه إليها بعطف دافئ كأنها أم حنون! كانت نوافذ المسجد عالية فسيحة وكأنها أبواب، كما هي العادة في هندسة أغلب المساجد السلطانية بالعهد العثماني. يرتفع بابها نحو مترين ونصف، ويعلو سقفُها نحو ثلاثة أمتار، ويمتد عرضها إلى مترين، أما عمقها فيستع إلى متر ونصف، حتى يستوعب عمقَ جدار المسجد، على هيئة الباب تماما، إلا أنها ترتفع عن أرض المسجد قليلا. وقد سُدَّتْ من الخارج بشباك حديدي متين وثابت، ومن الداخل بأبواب خشبية لصيقة بشباك الحديد، ذات مربعات فارغة يملؤها الزجاج الشفاف

لتغمر المسجد بأشعة الشمس. ثم جُعل لكل نافذة من داخل المسجد بابٌ خشبي متين، يُفتح ويُغلق. فصارت النوافذ بذلك أشبه ما تكون بغرف، أو بمقصورات صغيرة.

وضع فتح الله في النافذة ممتلكاته كلها: بطانيتين، وصَحْنَيْنِ للطعام، وملعقة، وكوبا لشرب الشاي! هذا كل متاعه الذي جاء به من أرضروم! وظن أنه بهذه الخلوة قد نجا من تسلل الأفاعي، ومن لدغها المفاجئ.. ولكن أليست الأفاعي أفاعي؟ فأي شيء يمنع تسللها ما دامت تحاصر المسجد من كل مكان؟ وما كان يظن قط أن النار التي فر منها ستقتفي أثره! حتى إذا فرغ من صلاته ذات يوم وانصرف الناس عن المسجد، تأخر نحو مقصورة المؤذنين خلف المسجد، فجلس يرتشف سبحاته في سكون. لكنه لم يلبث كذلك إلا قليلا حتى فاجأته امرأة فاتنةٌ، لا يدري كيف اشتعل لهيبها بين يديه، فجعلت تدعوه بألسنة من نار إلى فتنتها! فما أن أدرك حقيقة ورطته حتى انتفضت روحه، فصرخت صرخة صامتة من غور الأعماق... صرخة لم تسمعها الآذان ولكن اهتزت لصداها أركان المسجد والسماوات... وفي أقل من لمحة البصر قفز الشاب قفزة قوية، وارتمى بسرعة إلى النافذة من خلفه، فغَلَّقَ الأبواب، وقال لِلْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ: "الموت لك!" فكان ذلك التصرف لطمةً مُهِينَةً لهوانها، وممرغة لوجهها في ترابها! فتراجعت الحية خائبة وهي تَشْتُمُ الفتى الصِّدِّيقَ: "إذن فَابْقَ على هذه الحال البئيسة وحدك! حتى تهلك بتعاستك وحدك! ألاَ بُعْداً لك!"

أفعى رَقْطَاءُ، قطعاً أرسلها الشيطان إلى فتح الله! فلعلها تلدغ طهر غلائله فتحرق سره! وفَتْحُ اللهِ لديه سِرٌّ ليس يبوح به، لو كسر الشيطانُ

صندوقَ لآلئه لكان هَلَك! لكن الصدِّيق نَجَا، وأغلق دون دخان النار نوافذ عصمته، ثم رمى الشيطانَ بماء وَضُوئِهِ فَخَبَا!

* * *

عندما عَلِمَ الخال حسين أن فتح الله اتخذ نافذة المسجد مسكنا، اتصل بتقني الكهرباء فأمره أن يصلها بخيط النور، وأن يجعل فيها مصباحا للفتى. فاستجاب التقني على الفور ودخل المسجد في غير وقت صلاة وبدأ عمله. حتى إذا أشرف على وضع المصباح في النافذة وقف عليه الفتى، فسأله عما يفعل، فلما أُخْبِرَ بالأمر غضب، ومنع التقني من إتمام عمله، ثم جعل يفك بيده خيوط الكهرباء الموصولة بالنافذة، وهو يقول: هذا كهرباء المسجد، وهو مؤدًّى من مال الوقف، ومال الوقف لا يحل لي! إنني يا سيدي مستغن عنه بشمعتي!

ومن ثم لم يزل الفتى كلما انصرف من صلاة العشاء بالناس، وأطفأ المؤذن المصابيح؛ آوى إلى نافذته فأوقد شمعته الصغيرة، ثم اتخذ من شعاعها الخافت مسلكا، يسافر من خلاله في طبقات الزمان! فيشارك في مجالس العلماء بعصور غابرة، أو ربما ألقى دروسه على أطياف تنعقد مجالسها بأزمنة قادمة!

وبقي فتح الله آمنا بعد ذلك في نافذته المحبوبة لمدة سنتين ونصف. هي خلوته، وهي معراجه، وهي مستراحه ومطعمه. فيها ينام، وفيها يستقبل ضيوفه! ولم يفكر قط في تغييرها حتى نودي للخدمة العسكرية!

العقبة الثالثة: ضيافة في النافذة!

لم يكن له من حرج في سكنى النافذة سوى استقبال الضيوف! فقد

زاره مرة أخوه "صبغة الله" فجعله يبيت في النافذة، وبات فتح الله على أرض المسجد! واضطر في اليوم الموالي أن يعيده إلى أرضروم! فاستدان سبعين ليرة من أجل إرساله في القطار!

ثم هو لايزال يذكر زيارة الداعية الكبير "صالِح أُوْزْجَانْ"، ومبيته ليلة بنافذته! كانت زيارة مشهودة تركت في نفس الفتى أثرا بليغا لا ينساه أبداً! فقد جاءه في ظرف حرج جدا، وهو أحوج ما يكون إلى من يواسيه ويضمد جراحه! "صالِح أُوْزْجَانْ" رجل من شرق الأناضول أيضا، من القبائل العربية بتركيا، وهو حسيني شريف النسب. تعرف على بديع الزمان النورسي فانخرط في خدمته، وكان له دور فعال في إصدار الطبعات الأولى من رسائل النور. دخل السجن في محنة طلاب النور مراراً! وكان له الفضل في تعريف النورسي ورسائله في العالم العربي في وقت مبكر جدا! كانت له قلوب الخاصة والعامة تنفتح له بسهولة عجيبة! صاحب بعض الملوك مثل الملك فيصل رحمه الله، وكثيرًا من الوزراء والشخصيات السياسية والعلمية المشهورة من المشرق والمغرب، مثل الشيخ محمد محمود الصواف، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري، والأستاذ علال الفاسي، والشيخ عبد الله كنون، والعلامة محمد بن تاويت الطنجي! ما ترك بقعة من الأرض إلا زارها! ولطبيعته الاقتحامية والسياحية كان بديع الزمان يقول له مازحا: "أنت وزير خارجيتي!"

أكرمه فتح الله على قدر طاقته، ثم هيأ له النافذة لينام فيها وبات هو على الأرض، على عادته كلما نزل به ضيف! وفي الصباح -عند الوداع بمحطة الحافلات- احتضن السيد "صالح أوزجان" الشاب فتحَ الله بحرارة بالغة، فقال له وهو يودعه: "إنك بطلٌ تماماً!" كانت تلك الكلمات التي

صدرت من هذا الرجل العظيم، كافية لتجديد الحيوية والحياة في روح الفتى، وانتشاله بقوة من حال القبض الذي سيطر عليه أياما! فرجع إلى نافذته مسروراً، وهو يشعر بطاقة إيمانية جديدة تتفجر بين جوانحه!

كان فتح الله جريحا ووحيدا، يحتسي الأحزان في غربة البلد والروح! وكان أحوج ما يكون إلى ضماد معنوي، فجاءت كلمات السيد صالح بلسما لكل جراحه وأحزانه!

العقبة الرابعة: مغامرة روحية!

فتح الله شَبَابٌ غَضٌّ، وقوةٌ وفُتُوَّةٌ، وجمالُ خِلْقَة، وخُلُقٌ كريم، وأناقةُ لباس، وهيأةٌ قويمة، زادتها تجلياتُ الروح هيبةً وجلالاً! حِلْيَةٌ أَجْهَدِتِ الفتَى تَعَباً، وأرهقته من أمره عسراً في بيئة تمطر سماؤها بالفتن والمحن! فإلى متى يطول صبره؟ وحتى متى تثبت عزيمته؟ وها صويحبات يوسف كلما أغلق دونهن بابا فتحن عليه أبوابا! هو في سجن نافذته الضيق والمؤامرات تحاك ضده بين الأزقة والدروب! وأنى لغصن أخضر ينتصب وحيدا في غابة من الحطب المشتعل ألاَّ تلتهم النار عوده وتشرب نداه؟ فأين المفر؟

كان يدرك جيداً خطورة موقفه، ووعورة مسلكه؛ ومن ثم فكر تفكيراً غير مألوف! فقرر الفرار إلى رياضة الروح، ومجاهدة النفس إلى أن تنهزم غرائزها! ومن شدة فراره من نار الفتنة سار على حد السيف فعانى كثيراً! كان يرتقي بمعراجه الروحي بقوة، ويعتلي تلة بعد تلة، ويدخل مقاما بعد مقام، حتى إذا بلغ أفق الفتح حاول طرق الباب فلم يجد له أثراً! وقصف البرق جوانحه حتى تمزق لحمه وسال دمه! فأدرك أنه أخطأ الطريق فبكى؛

ثم تدلى مرة أخرى إلى مدارج البداية، يبحث عن باب المعراج!

كانت رياضته الروحية حصاراً لنفسه الأمارة؛ أن تضعف بين يدي فتن أَدِرْنَه! وربما كان فيها شيء من الانتقام اللاشعوري من هذا الخراب الروحي الذي لطخ مدينة المجاهدين!

كان سلوكه غير مألوف؛ فلم يكن ينام إلا قليلاً، ولا يأكل إلا قليلاً، ولا يتكلم إلا قليلاً! لم يكن يملك سوى بطانيتين، في ليالي الشتاء القارس كان يفترش إحداهما ويتدثر بأخرى! كانت ليالي أَدِرْنَه القارسة تجعل سكانها يشتاقون إلى برد نهارها الشديد! ضاجَعَ الجوع ليالي طوالا، ولم يكن ينام من الليل إلا ساعتين! وأنى لجسم يتألم بين مخالب البرد، وينكمش على الطوى أن يجد للنوم سبيلاً؟ قاطَعَ اللحم ولذيذَ الطعام حتى هزل جسمه وشحب وجهه!

وازدادت رياضة فتح الله قسوة على نفسه حتى لقي منها عنتا! لكنه -رغم ذلك- لم يزل يسير على أشواك مَكَارِهِهَا، فهو رجل لا يعرف للتوقف سبيلاً!

"خَيْرِيَّةُ هَانِمْ" امرأة صالحة، توفي زوجها المتقاعد من الجيش برتبة عقيد. هي وحدها كانت تعرف أحوال فتح الله، وتدرك معاناته المريرة، فكانت تعطف عليه كما تعطف على أبنائها، وتشفق عليه أن تراه يتضور جوعا. كانت سيدة أصيلة الأعراق، رفيعة الآداب والأخلاق. لما أدركت الوضع الذي آل إليه حال الفتى استبدت بها الشفقة، وانشغلت بأمره ورعايته، فجعلت تخدمه كأم حنون! رأت البرد يجمد أضلاعه، فجاءته بفراش وَطَّأَتْ به أرضَ النافذة على الرغم منه! ومن حين لآخر كانت تأتيه بطعام، فلا يجد بدا من تناوله. فقد كان يحترمها ويقدر فضلها.

ومع ذلك استمر الفتى في رياضته الروحية الغريبة حتى صار إلى نوع من الشعور بالاستيحاش من الناس، وخاصة الذين يأكلون كل أصناف الطعام ويلتهمون أنواع اللحوم. كان إذا رآهم تجلت له صورهم بين عينيه وكأنهم وحوش مفترسة!

في يوم من الأيام، بينما كان يغفو بين النوم واليقظة، تجلت له نفسه في صورة قطة! فجعل يطاردها حتى فرت! ثم استمر في الرياضة فتجلت له نفسه مرة أخرى مثل دبّ! فجعل يصارعه حتى انتبه من غفوته، دون أن تنتهي المصارعة بهزيمة أحدهما! وفي مشاهدة ثالثة -بعد زمن آخر من الرياضة- تجلت له نفسه على صورة غُورِيلاًّ عملاق! ففزع منه وفر محتميا بالأسوار العالية!

وضعف جسم السالك المجنون جداً؛ جَرَّاءَ الجوع والبرد والسهر، فتسللت إليه العلل الأدواء، ثم تهاوى بنافذته مريضا ليقضي بعد ذلك مدة نصف شهر بالمستشفى تحت الرعاية الطبية! وهنالك تلقى خبر مرض والده فازدادت حالتُه سُوءاً وتدهوراً! وكانت تلك مناسبة للدخول في منزلة المراجعات!

كانت الأحوال والأطوار الغريبة التي صارت تتقاذفه في رياضته الروحية، صواعقَ من النُّذُرِ الرحمانية، تتنزل عليه بالماء والثلج والبرد لإخماد لهيب روحه المتقد! عسى أن تعتدل خفقة جناحية؛ فتستوي على مسلك المعراج النبوي المفضي إلى باب السماء!

وأدرك فتح الله أن نفسه لَبَّسَتْ عليه! ودلست عليه الباطل في ثياب الحق! فأتته من حيث لا يحتسب، وجعلت تستدرجه إلى الهلاك المبين! حتى إذا دخل برزخا متداخل الأطوار، ما بين حضور وغياب، واستبدت

به الحيرة حتى أشرف على الفقدان لمع برق الشريعة في سمائه فجأة فوجد نفسه تضرب به بعيدا في مسالك التيه!

وأخيرا وجد باب الخروج! واتضحت له معالم مسلكه الجديد، وضوح الشمس في رابعة النهار. مسلك وجد فيه كل ما يريد وزيادة: العصمة من الفتنة، والأمان من الضلال، وسلامة السير، ثم ضمان الوصول إلى الله بإذن الله!

وأدرك فتح الله أن مجاهدة النفس، وتهذيب غرائزها؛ لا بد أن يكون من خلال الانخراط في المجتمع، وخوض غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم... وأن العزلة الروحية المطلقة مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب! ثم شاهد عيانا أن مجاهدة النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضراء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاق إلى منعطفات الهاوية!

العقبة الخامسة: مسلك الدعوة إلى الله!

وبدأ الفتى يخرج من عزلته.. حاول أن يربط علاقات مع المجتمع العام، فوجد نفسه أنه لم يكن قد تعرف إلا على بضعة أفراد من الشباب. فانطلق ذهنه يفكر بقوة في فتح مسلك جديد، وإحداث ثغرة في الجدار الشيطاني الذي بات يحاصر المدينة!

ذات يوم بعد أن سلم من صلاته بالناس، انتصب واقفا، وبدل أن يذهب إلى زاوية نافذته، ذهب مباشرةً إلى المقهى! وهناك بمجالس الشاي، انخرط فتح الله مع الناس مشاركاً إياهم الحديث عن هموم الدين والوطن!

وما هي إلا لحظات حتى أخذ الفتى بزمام الكلام، فاستقطب الاهتمام، والتفَّت حوله العيون والآذان! ثم أوقد من لهيب روحه مدافئ تجمع حولها كل الحاضرين! فما تفرق عنه المجلس إلا على شوق للمزيد!

كان يوما ممتعا ومختلفا؛ فقد وجد أن حماسه الديني قد توقد أكثر، وأن رصيده الإيماني قد ارتفع بقلبه عاليا! فتجلت له مدراج المسلك الجديد واضحة المعالم، وعَلِمَ أنه إنما خُلِقَ لهذا الطريق!

ثم بدأت علاقاته الدعوية تؤتي أكلها بإذن ربها، فكان -أول الأمر- إذا أذن المؤذن غادر المقهى إلى المسجد فرداً! وبعد أيام استطاع أن يصطحب معه مُصَلِّياً جديداً واحداً! ثم بعد أيام أخرى اصطحب اثنين، فثلاثة وأربعة.. وتوالت كرامات الهدى تتدلى عناقيدها بالمقهى؛ حتى قويت بها جماعة المصلين، وأينعت شجرتها! ثم جعل يحارب العادات السيئة في جلسائه مثل التدخين، وما ولاه، فبادرت كثير من الأفواه المؤمنة إلى التطهر بماء التوبة! ولا ينسى فتح الله مشهد "العم خليل"، كيف انتفض بعد موعظة بليغة؛ فأخرج علبةَ سجائره ومزقها تمزيقاً، ثم طوَّح بفُتاتها بعيداً! فكان ذلك اليوم آخر عهده بهذا السم اللعين!

حدثني راوي الأشجان قال:

كان الدين يوشك أن يمحى في جميع منطقة "تراقيا"! وهي الجهة الأروبية من تركيا. مرة جاء شخص من منطقة "ديار بكر" بأقصى شرق الأناضول، فقال للفتى: "لقد طفت كل مدن تراقيا، فلم أجد فيها من يعيش الدين الإسلامي سوى شخصين: أحدهما هو أنت، والآخر إمام مسجد في مدينة "كِرْكْلاَرْأَلِي"! وبعد أيام جاء الإمام المذكور ليتعرف على الفتى، فصارت تلك سبب معرفة وتعاون على الخير. كان من النادر جدا أن تجد

شخصا له عاطفة دينية، فإذا وُجِدَ كان لا بد من قطع مسافة لا تقل عن ساعتين من أجل الوصول إليه! هكذا كانت معالم الدين بالغرب التركي! إلا أن الفتى بدأ يحفر في الصخر فاستطاع أن يستقطب شابا أو شابين من طلاب الثانوية، ثم آخرين -بعد ذلك- من طلاب الجامعة! وصار يعقد معهم حِلَقاً لدراسة اللغة العربية، في بيئة صار تعلم الحرف العربي فيها أو تعليمه أخطر من تجارة المخدرات!

وشيئا فشيئا بدأت علاقات الفتى الداعية تتطور، وتقتحم مختلف دوائر المجتمع.. ثم صار يكتشف سر وجوده في أَدِرْنَه وحقيقة الوظيفة الربانية التي ساقه القدر من أجلها إلى هنا! وبدأ فتح الله يحب مدينة أَدِرْنَه بل وجد أن روحه قد اتحدت بها، وأن مواجيده قد تعاطفت مع أشجانها، فصار يئن لأنينها ويبكي لبكائها! وإذا بقلبه الشاب يتسع ويَكْبُر؛ حتى أصبح يستوعب بحبه كل أهلها، يعانق صالحيها، ويعطف على ضُلاَّلِهَا وجهالها، ويشفق على فساقها وعُصاتها! وصارت أَدِرْنَه جزءا من حياته، وركنا من أركان كيانه. حتى إن بعض عاداته وطباعه التي تَخَلَّقَ بها إلى أن صارت من سجاياه الثابتة، ثم صاحبته طيلةَ مسيرته الدعوية والاجتماعية، هي مما اكتسبه من سلوك وأخلاق في مرحلة أَدِرْنَه.

فَلأَدِرْنَه في قلبه حنينٌ أبدي وشوق سرمدي! حتى إنه كلما عَبَرَ مضيق البوسفور -الفاصل بين القارتين الأروبية والأسيوية في تركيا- وَدَّ لو ارتفع هذا المجرى البحري عن الأرض إلى الأبد، واتحدت تربة أَدِرْنَه ببلاد الأناضول! فما أَدِرْنَه وسائر المدن التركية بالمنطقة الأروبية سوى جذور لشجرة طيبة امتدت أغصانها عاليا عاليا في السماء، ثم انتشرت أفقيا حتى تدلت عناقيدها في كل مكان من بلاد الأناضول! فإذا بالعناقيد

تتدلى كاللآلئ من تحت قباب إسطنبول، وتتهادى حول مآذن قُونْيَا، ثم تمتد الأغصان بفتوة الربيع؛ لتتشابك خمائلُها الخضراء -في شرق البلاد البعيد- ما بين أُورْفَة وبِتْلِيس ووَانْ ونُورْسْ! فعلامَ يغضب الفتى العاشق من البوسفور؟ فإنما هو بستان واحد تجري من تحته البحار! ولليمام فيه سياحة العاشقين، وهديل الحب والشجا..! فما زالت أسرابُه تطير بانسياب جميل، ما بين شرقه وغربه، تبيض في أُورْفَة ومَارْدِين، وتغرد كل على شرفات أَدِرْنَه!

وصَاحَبَ فتحُ الله شيوخاً أدركوا العهد القديم، ممن شهد حرب البلقان والحرب العالمية الأولى، وأدرك أواخر الدولة العثمانية! فصار يتلقى عنهم أحزان الماضي وآلامه، ويرسم من دمائها للمستقبل آمالَه!

وفشا في المدينة خبر الإمام الشاب، واشتهر بخطبه ووعظه، وجمال حديثه، وحسن منطقه. وتطورت علاقاته شيئا فشيئا؛ فبدأت تمتد أغصانها نحو بعض أعيان المدينة، بل نحو بعض رجال الأمن وضباط الجيش! فقد نال إعجاب رئيس شعبة دائرة التجنيد، كان ضابطا طيبا أصله من منطقة البحر الأسود. كان برتبة عقيد، فكان هذا العقيد يحبه كثيراً، ويقول له كلما رآه: "أنت لا يمكن أن تكون من أرضروم، ملامحك تُشبهنا تمامًا، أنت ابن بلدي!"

أما مدير الأمن "رسول بك" فقد كانت صداقته له وثيقة جدًّا. كما أنه عقد علاقات طيبة مع بعض القضاة والمدعين العامين! وكان هذا في تلك المرحلة التاريخية من العهد الجمهوري بتركيا من أغرب العجائب! فأن يعقد إمام مسجد علاقات مع "البيروقراطيين"، أو بالأحرى أن يَقبل مسؤولون أمنيون، وضباط، وقضاة، التواصلَ مع إمام مسجد شاب،

ويفسحون له في مجالسهم، هو أمر استثنائي! إلى الكرامات هو أقرب منه إلى التأويلات المادية و عالم الأسباب!

قال الراوي:

في هذه الفترة بدأَتْ تصدر بعض المنشورات الإسلامية من جرائد ومجلات، وبدأت الروح تنبعث في الحياة الإعلامية الإسلامية. وصار بعضها يصل إلى مدينة أَدِرْنَه مثل جريدة "الشرق الكبير"، كانت تصل منها نسختان، وجريدة "الرجل الحر"، كانت تصل منها خمس وعشرون نسخة، ثم مجلة سبيل الرشاد.

جريدة "الرجل الحر" كانت آنذاك جريدة أسبوعية، وكانت هي الصوت الوحيد للمسلمين في تركيا، بالإضافة إلى المجلتين المذكورتين. فلذلك كان فتح الله يطلب منها أربعين نسخة زائدة فيشتريها جميعها بنقوده ثم يوزعها مجانا! وكان يشتري أحيانا بكل راتبه نسخا من "رسائل النور" وبعض الكتب التي يراها مفيدة، ثم يوزعها مجانا كذلك! حتى إنه ربما استدان من أجل ذلك، أو ربما ظل أياما يصارع الجوع!.. في صباح أحد الأعياد إذ كان يهم بالصعود إلى كرسي الوعظ، شعر بألم في بطنه -وكان يطوي على الجوع منذ أيام- فبحث عن شيء يسكن به ألم معدته أثناء الوعظ على الأقل، فتذكر قنينة عسل فارغة كانت عنده، فاستخرجها وجعل يلعق بإصبعه ما وجده ملتزقا بقعرها! حتى إذا صعد الكرسي وشرع في الدرس جعل العسلُ يُقَلِّبُ بطنَه تقليبا، وصار الفتى يشعر بغثيان شديد، وليس في البطن طعام ترده، فجعلت أمعاؤه تهتز اهتزازاً، وتضاعف ألمه من حيث أراد تسكينه، ثم استمر على تلك الحال إلى نهاية الدرس!..

وخلال تلك الأيام، بينما كان يمشي في الشارع على ألم الجوع،

والمطر يتساقط برفق؛ إذا به يرى أمام رجليه خمس ليرات!.. فالتقطها على الفور ثم دخل المسجد، حتى إذا سلم من صلاته هرع إلى المطعم مباشرة فأشبع بطنه! وتصرف فيما بقي منها خلال عدة أيام.. حتى إذا استلم راتبه عزل منه خمس ليرات، وزاد عليها خمس ليرات أخرى، ثم تصدق بالمجموع على فقير! لكنه لا ينسى أن الخمس ليرات التي عثر عليها -وهو يطوي على جوع رهيب- كانت في الحقيقة لُطفًا كبيرًا! لكنه مع ذلك ما ترك عادته قط في توزيع الكتب والمجلات الإسلامية مجانا! فحرقة الدين في قلبه كانت تنسيه حرقة المعدة!

كانت رسائل النور تُبْعَثُ إليه من أرضروم، من طرف صديقه الخياط "محمد شركيل"! فلم يكن ساعتَها يعرف في إسطنبول أو أنقرة من يثق به حتى يكلفه بشرائها وإرسالها إليه!

لم يكن مثل هذا العمل في تلك المرحلة العصيبة من تركيا سهلا، بل كان جريمة قد ترمي بصاحبها في غيابات السجون! ولذلك فقد كان إذا أراد إهداء نسخة من كتاب أو جريدة إلى أحد الأشخاص أكرمه بكأس شاي أولا، ثم آنسه بحديث لطيف، ثم بعد ذلك أتحفه بالهدية على حذر من عيون الشياطين! أما جريدة "الشرق الكبير" فلفرط الحصار الشديد المضروب عليها فقد كان يخفيها وسط جريدة "الجمهورية" الرسمية ولا يسلمها لأحد إلا في مكان خال تماما!

وانخرط الفتى بكل وجدانه في معركة الأمة الكبرى، وتقدم إلى الأمام يقاتل مع الطليعة في الخطوط الأمامية! وما كان لفتح الله -إذا جاء- إلا أن يكون طليعةَ النصر المبين! كان طبعه الفوار يأبى عليه أن يكون من المتأخرين! فلم يزل يذكر وهو طالب علم صغير بأرضروم، إذ كان يحفظ

المتون، متمايلا بقوة نحو اليمين ونحو الشمال، وكأنما هو يصارع أحداً! كان يتذكر حجم الانحراف الذي وقع للأمة، والتنكر الرهيب الذي وقع للدين! فتلتهب روحه، وتزداد وتيرة حركته! فيتمنى لو وُضعت الأرض كلها على سبابته، فأدار حوادثَها كلها بقوة في الاتجاه الصحيح! ولولا رسائل النور التي عدَّلت موازين هيجانه الفوار، وألجمتْ فرسَ عاطفتِه الْجَمُوح؛ لكانت روحه قد اقتحمتْ نَارَ هلاكِها منذ زمان!

العقبة السادسة: مضايقات بوليسية!

على الرصيف المقابل لباب المسجد كان رجل يبيع البطيخ الأحمر، ويراقب المصلين واحدا واحدا! وكان يرمي المؤمنين بنظرات يتطاير منها الشرر كأنه شيطان من الجن! ولم تكن تخفى على هذا الشرير حركة فتح الله الساعية ما بين المسجد والمقهى؛ فكان يحصي ذلك كله! وفي فترة ما كانت هناك انتخابات محلية، وكان هناك منع حكومي للدعاية الانتخابية! فرأى هذا الشيطان الإمام الشاب جالسا في المقهى مع شخصين، فدبر له مكيدة لإلقاء القبض عليه! وفعلاً، ما أن عاد الفتى إلى نافذته واستوى بها جالسا حتى سمع فرقعة شديدة وجلبة رهيبة! وفجأة أُشعلت مصابيح المسجد، فشاهد الشرطة تقتحم المكان! فنظروا إلى النافذة مباشرة، ولحسن حظه لم يبصروا الكتب والمجلات التي كانت بجانبه لعدم وصول نور المصابيح بقوة إلى داخل النافذة، وإنما بدا لهم شخص الفتى وحده فانقضوا عليه واعتقلوه!

وفي الطريق إلى مركز الأمن جعل أحد الشرطة يشتمه، ويُسمعه ما يكره من الكلام السيء! ولم يكن الفتى ممن يتحمل مثل تلك الإهانات، فكان يرد شتيمة بشتيمة! فجعل الشرطي ينخسه ويزيد في إرهابه فلا يزداد

الفتى إلا صلابة! واشتد عليه حقد الزبانية الذين يقتادونه حتى إذا وصلوا مركز الشرطة صعدوا سُلَّماً تنتهى درجته العليا إلى فراغ، بحيث لو دُفع بها إنسان لهوى إلى الأرض فتحطت جمجمته! فجاءه شرطي سري ممن ألقوا القبض عليه، كان أعرج، مخيف الوجه، ذميم الخلقة، يتلوى في مشيته كأنه ثعبان! فجعل يستفز الفتى مرة أخرى وينخسه! فلم يطق الفتى صبرا فرد عليه بضاعته! فاشتد هيجان الشرطي وانقض عليه، ثم جعل يدفعه نحو هاوية الدرج... فإذا بمدير الأمن "رسول بك" يفاجئهم جميعا، ويصعق على الفور: "قفوا!"

كانت حادثة رهيبة في حياة الفتى لم ينسها أبداً! أشبه ما تكون بحوادث الأفلام! ولولا لطف الله لكان هوى في تلك الحافة الرهيبة! كان "رسول بك" يحب الفتى كثيراً، وما كان في علم هؤلاء الزبانية أنه كان من جلسائه المقربين. لكنه في هذا الموقف الحرج التفت نحوه صائحا بنفس الحدة: "ماذا تصنع أنت هنا؟" فأجابه الفتى بأدب: "إن هؤلاء ألقوا علي القبض بتهمة الدعاية للانتخابات، وأنا منها بريء!" فرد المدير بحدة أقوى: "هيَّا اُخْرُجْ من هنا بسرعة!" وأنقذ مديرُ الأمن صاحبَه وهم لا يشعرون! فخرج الفتى وهو يشاهد الخزي يغشى وجوه الزبانية، وبائع البطيخ يقف خلفهم فاغرا فاه لا يكاد يصدق ما جرى!

أما فتح الله فقد كانت هذه الحادثة هي تجربة الاعتقال الأولى في حياته! ورغم أنها مرت بسلام إلا أنها جعلته يعود حزينا إلى نافذته، فيختلي بها مرة أخرى لعدة أيام! لكن ليس بقصد العزلة هذه المرة، وإنما بقصد التفكير في طريقة جديدة لمصارعة أشباح الظلام، دون أن تسقط من يده شمعة النور!

"يَشَارْ طُونَاكُورْ"، أو "يَشَار هُوجَا":
صَقْرُ الدعوة الإسلامية يحل بأَدِرْنَه!

كان دخول الشيخ "يَشَارُ طُونَاكُور" إلى مدينة أَدِرْنَه -مفتيا عاما لمحافظتها- مَدَداً عظيماً للأستاذ محمد فتح الله. فالسيد "يَشَار" كان موظفا برئاسة الشؤون الدينية، لكنه كان رجلاً من طراز مختلف تماماً!

كان "يَشَار هُوجَا" رجلا ذا تجربة كبيرة، وصاحب خبرة في مجال الدعوة والتواصل مع الجماهير، ومعرفة عميقة بأحوال الزمان.. كان يتمتع بذكاء رفيع في مجال التواصل مع الناس، بل حتى مع خاصة المسؤولين! كانت شجاعته النادرة مضرب مثل للدعاة والمجاهدين! وقد كانت له مغامرة عجيبة في فتح أبواب الحصار على المساجد، لم تزل مدار مجالس المؤمنين!

قال راوي الأشجان:

أما والد السيد "يَشَار طوناكور" فهو الشيخ "أحمد هُوجَا"، كان من كبار العلماء، رحل بأسرته إلى إسطنبول -في العهد الأخير للدولة العثمانية- مهاجراً من مدينة "بِتْلِيس" في أقصى شرق الأناضول! فقرَّبه السلطان عبد الحميد الثاني إليه، ووظفه كاتبا في ديوانه! واتخذ من صهرَيه حارسَين ضمن حراسه الشخصيين! وكلاهما استشهد في انقلاب فاشل على السلطان! وبذلك صارت أسرة يَشَار هُوجَا من الطبقة الأرستقراطية في العهد السلطاني الأخير! وبعد إسقاط الخلافة الإسلامية، وسيطرة الجمهوريين على البلاد تغير وضع الأسرة كثيراً! إلا أن الفتى "يَشَار" جاهد هذه المرحلة العصيبة بإيمان مكين وصبر متين! فرغم حظر تدريس القرآن الكريم وعلوم الدين فإن الإمام يشار لم ينقطع عن ذلك البتة! بل بات يلتقي بطلابه سرا تحت جنح الظلام فيلقنهم أمانة الأمة التي خانها

الانقلابيون! وفي أواخر الخمسينات من القرن العشرين صار مفتيا بمدينة "بَالِي كَثِير" ما بين إسطنبول وبُورْصَا.

قال الراوي: هنالك وقع الانقلاب العسكري الرهيب على الحكومة الديموقراطية، الذي حدث بُعَيْدَ وفاة الإمام النورسي سنة ١٩٦٠م، فكان عاصفةً أخرى في تاريخ تركيا العصيب، حيث تم بموجبه إعدام رئيس الوزراء عَدْنَان مَنْدَرِيس، وبعض وزرائه المخلصين؛ بسبب ما قامت به حكومته من خدمات للدين والوطن، كرد الأذان إلى اللغة العربية، ورفع الحظر عن بعض التصرفات الدينية في المجتمع. هنالك ذُبِّحَ أهل الخير في البلاد مرة أخرى وشُرِّدُوا تشريداً!.. ودخلت تركيا في ظلمات جديدة، بعضها فوق بعض! فَفُرِض قانون طوارئ رهيب، تحرسه مناجل الموت، ومُنع التجول، وغُلِّقَ ما بقي من المساجد، وشُرعت فوهات البنادق بين الأزقة والدروب، تقتنص رأس كل من يطل من شرفته أو نافذته! فلا أحد يجرؤ على الاقتراب من ثقب بابه أو شق نافذته إلا مجنون واحد هو "يَشَارْ طُونَاكُوزْ"! فقد لبس أجمل ثيابه ثم فتح بابه على مصراعيه وخرج!

كان يومَ جمعة، ولكن لا جمعة ولا جماعة في دولة الخوف، فكل المساجد موصدة الأبواب! فقد كانت فرقةٌ من الجنود تترصد أي حركة على رأس درب الأستاذ "يَشار"، فلما رأوه فتح بابه بهذه الجرأة وجعل يمشي أمامهم بثبات غريب؛ تعجبوا من أمره وتملكتهم الحيرة! فصاروا يتجادلون فيما بينهم ما بين قائل إنه مجنون وقائل إنه رجل مهم من رجال الدولة! ورجحت كفة الظن بأنه من المسؤولين الكبار، والرجل ما يزال يمشي غير مبال بما خلفه من خطر، حتى إذا وصل بيت إمام المسجد طرق بابه فأمره بالخروج! ثم اصطحبه معه وسار به إلى المسجد ففتحاه بقوة

ثم دخلا، وبسرعة أخذ يَشَارُ ميكرفون الأذان فصدح بالتكبير في الفضاء! وما أن سمع الناس الأذان حتى خرجوا إلى المساجد أفواجا، ثم توالت أصداء المآذن هنا وهناك في كل مكان، وارتبك الجنود والعسس! فجعلوا يتساءلون: هل رُفِعَ حظر التجول؟ ومن ذا قدير على إطلاق الرصاص على رؤوس الصوامع الشامخة؟! أو خرق رهبة التكبير بصوت بندقية خرقاء؟! وفشل قانون حظر التجول فعاد الناس إلى الحياة! هنالك قُبض على الإمام المجاهد "يَشَار هُوجَا" فنفي إلى حدود البلقان مفتيا بأَدِرْنَه، وخطيباً بمسجد السليمية القديم!

ونظرا لما يتمتع به الرجل من خبرة وحكمة في التواصل مع كل طبقات الناس استطاع في فترة وجيزة أن يعقد صلات متميزة مع البيروقراطيين، بل مع والي المدينة نفسه! وصار له جمهور عريض من المصلين على المستوى الشعبي، كل يوم جمعة يحجون للاستماع إلى خطبته بمسجد السليمية السلطاني، ذي أعظم قبة في مساجد تركيا كلها! وكانت له عادة عجيبة عند خروجه إلى صلاة الجمعة، فقد كان يلبس أحسن ثيابه ثم يتقلد سيفا على جانبه الأيسر مشيراً بذلك إلى أن أَدِرْنَه لم تزل ثغراً من ثغور الجهاد على حدود الغرب! وبهذا وذاك أعاد الرجلُ لمؤسسة الشؤون الدينية -بمحافظة أَدِرْنَه- حرمتَها واعتبارها، في نظر العامة والخاصة، وأصبح الموظفون بها أكثر حيوية ونشاطا.

كان يشار مجاهدا مخلصا حقا، فما أن تعرف على فتح الله وأحواله بنافذة المسجد حتى أحبه واحتضنه، وصار يدافع عنه لدى المسؤولين الكبار بالمحافظة! فأزال كثيرا من الاتهامات ضده. وكانت له في ذلك طريقة تدل على ذكاء خارق ومباغتة! سأله الوالي مرة -وهو بمجلسه في

مقر الولاية- عن رأيه في إمام مسجد الشرفات الثلاث، وكان هناك رجل يدعى "رَاقِم أَفندي" وكان ممن ينقلون الأخبار السيئة والوشايات عن فتح الله، ويحذرون السلطة من خطره! فبادر "يشار" إلى الإجابة بتلقائية: الإمام فتح الله مثال رفيع للفضيلة والأخلاق العالية! ولكن عفوا سيدي الوالي! في الحقيقة لا تسألوني عن هذا الفتى والسيد "رَاقِم أفندي" موجود، هو أكثر مني معرفةً بإخلاص هذا الفتى ونبل خصاله! فَسُقِطَ في يدي الرجل! وهل يستطيع جاسوس وضيعٌ أن يُكَذِّبَ كلام مفتي المحافظة؟ خاصة إذا كان هذا المفتي أسداً مَهِيباً مثل يشار هُوجَا! فاضطُر "راقم أفندي" إلى تفصيل ما أجمله المفتي مدحا وتبجيلا، وقلبه يتمزق غيظا وحنقا! فكان ذلك اليوم نصراً مشهوداً لفتح الله لدى الوالي، ومن ثم انطلق من جديد يعظ ويخطب، ويربط الصلات مع الجماهير!

وتوثقت صلته بالأستاذ يشار، فلم يزل يستشيره في كل ما يهمه؛ فيستفيد من حكمته وخبرته. فمنذ أُعْلِنَ خبر إعدام رئيس الوزراء "عدنان مَنْدَرِيس" وروح فتح الله تلتهب في هيجان متواصل! واستمر هيجانه بضعة أشهر.. لم يتحمل الشاب خبر هذا الظلم الجبار الذي لحق بمندريس وأصحابه، فصار يتألم لهذا الحدث الرهيب صباح مساء حتى جعلت نفسه تحدثه برد فعل ما، ربما كان خروجا عن منهج مدرسة النور الذي اتخذه مسلكاً! لكنه لما أخبر الأستاذَ "يشار" بالأمر مستشيرا إياه، جعل الرجل يهدئ من هيجانه بِحِكْمَتِهِ البليغة حتى جعله يعود إلى هدوئه مقتنعا بكل ما قاله له، غير شاك في صدق طويته وإخلاص نصحه. فالأستاذ يشار لا تنقصه جرأة ولا شجاعة، بل هو إمامٌ في طريق التضحية والفداء؛ ومن ثم كان لنصحه البليغ على الفتى أثر الماء البارد على اللهب!

العقبة السابعة: التلقين الأخير..!

وإذا اشتد البلاء عليه بأَدِزْنَه، فقد كان من أشد ذلك عليه أن تم توظيفه "رئيسا روحانيا" على المحكوم عليهم بالإعدام! وظيفة جعلته يعيش من المشاهد ما لم يكن يخطر له على بال! فعاش تجربة الإعدام -على المحكومين به- معاينةً وهو لما يبلغ العشرين من عمره! وكان لها من الأثر على وجدانه ما كاد يجعله يقطع صلته بالتراب، ويعيش محلقا في معراجه الروحي إلى الأبد!

ففي السنة الأولى من توظيفه إماما بمسجد الشرفات الثلاث، جاءه رجل وقال له بعبارة جافة: إن القاضي "غَنِي بَكْ" يطلبك! وتذكر الفتى أنه التقى بهذا القاضي يوما في أحد المجالس فأهداه بعض الكتب، فتوجس من هذه الدعوة شرّاً، ثم سيطر القلق والاضطراب على خواطره وجعل يتساءل: ما لي وللقاضي؟ حتى إذا مثل بين يديه قال القاضي: "فتح الله! لدينا مجرم محكوم عليه بالإعدام، ونحن في حاجة لرئيس روحاني يلقِّنه عند التنفيذ، وقد عيَّنَّاك لهذا الأمر!"

فتح الله رجل عاطفي وحساس جدا، تكاد كبده تتفجر رحمةً وإشفاقا! لكن مفاجأة القاضي إياه بهذه الصرامة جعلته يقبل الأمر بصورة تكاد تكون لاشعورية، خاصة وأن ما كان يجول بخواطره من توجسات لم يتحقق منه شيء.

في تلك المرحلة كان تنفيذ الإعدام يتم بصورة علينة، في الساحات العمومية ليكون المشهد عبرةً للآخرين!

وقفت سيارة المحكمة بعد العصر بباب المسجد، ونودي على الإمام فخرج وركب مع الموظفين، ثم انطلقت بهم جميعا نحو السجن.

أُخبر فتح الله أن الشخص المحكوم عليه بالإعدام مجرم خطير، كان اسمه "راسِمْ دِيكْ". فلما دخلوا عليه الزنزانة نظر إليه الفتى فشاهد يديه مغلولتين! كان شخصا قويا ومخيفا؛ ولذلك لم يكن يُؤْمَنُ أن يَهجم على من يقترب منه، كانت لائحة جرائمة كبيرة. وكان من بينها أنه هو وزوجته اقتحما بيت شخص ظنوا به غِنىً وثراءً، فقتلوا الرجل وزوجته، وعندما سمع المجرم نباح الكلب في الحديقة قصم رأسه بفأس! فلما فتشا عن مخازن المال لم يعثرا سوى على ثلاثمائة ليرة! والحقيقة المرة أن الرجل القتيل كان فقيراً! فلم يكن سوى نحاس، يشتغل بصقل الأواني النحاسية لقاء بضعة قروش!

عندما علم المجرم -من خلال الجرائد- أن قرار الحكم عليه بالإعدام، قد صادق عليه مجلس النواب؛ ازَّلزل كيانُه واختلط عقلُه فصار يهذي! حاول الإمام الشاب أن يلقنه بعض الدعوات، ولكن دون جدوى، فقد كان يجيب دائما: "أتاتورك سوف يأتي، وسوف نذهب إلى البيت معاً!"

بعد قليل جاء بعض الحراس فأَلبسوه لباساً أبيض، ثم علقوا في عنقه ورَقةً مكتوبة، عليها لائحة جميع الجرائم التي اقترفها، وكلها كانت مفزعة للغاية!

كانت منصة المشنقة قد نُصبت في الساحة المقابلة لمسجد "الشرفات الثلاث"! جعل فتح الله ينظر إلى الناس الذين عمروا الساحة، فلم ير اهتماما على وجه أحدهم! وإنما كان المشهد عندهم أشبه بسوق أو مهرجان..! إلى درجة أن بعضهم كان يبيع الفستق أو البندق، وآخر يبيع العصير والمشروبات! ولا أثر لمشهد الإعدام على وجه أحد! فالقلوب تكلست منذ زمان قديم! اللهم إلا المؤذن إبراهيم أفندي الذي كان يعلم

القرآن في مسجد "قُوشْجُو دُوغَان"، كان قد بلغ من العمر نحو خمسين سنة، هو وحده رآه فتح الله محزوناً كئيبًا، وكأنه هو المعلق على حبل المشنقة! فقد أفزعه حقا مشاهدة إنسان يموت شنقا إلى درجة أنه بعد تنفيذ الإعدام لم يكن يستطيع المرور بتلك الساحة لعدة أيام!

قام فتح الله بآخر تلقين للرجل لكن دون جدوى!.. ثم صعد به الشرطة فوراً إلى منصة المشنقة! اقترب القاضي "غَنِي بَكْ" من المجرم وقال له: "ما آخِرُ طلبك؟" فأجاب: "سوف يأتي أتاتورك وسوف نذهب إلى البيت سويًّا!" ثم تراجع القاضي، وحل محله الجلاد! كان سكرانا حتى الثمالة! وتلك كانت عادتهم في التنفيذ!.. أدار الجلادُ وجهَ المجرم نحو القِبلة، فوَضَع الحبلَ في عنقه ثم نفذ فيه الإعدام شنقا؛ فتدلى لسانه قدر شبر!.. واسودت الجثة مباشرة بصورة مخيفة، فاستدارت بسرعة على عكس جهة القبلة! ثم تراجع عنها الجلاد والموظفون، وتركوها معلقة على المنصة حتى ظُهْر اليوم التالي للعبرة! وليس يدري الفتى بعد ذلك كيف ولا أين دفنوها؟ لكن الذي يدريه أن أحدا من السكان لم يكن يعتبر بمشهد رهيب مثل هذا!

أما فتح الله فقد تابع المشهد كله لحظة بلحظة! ومشاهدة عميلة الإعدام عبرة وأي عبرة! فقد كان كلما نظر إلى المحكوم نظر إليه كشخص سيموت بعد ساعة! ثم بعد نصف ساعة! ثم بعد ربع ساعة! ثم بعد دقائق! ثم بعد ثوان! ثم يشهده وهو ينقطع نَفَسُهُ إلى الأبد! فمشاهدة هذا الشريط التراجيدي الرهيب معاينةً مختلفة تماما عن تلقيها سماعا أو قراءة في جريدة.. وليس الخبر كالعيان! وبقي الحدث في قلبه بكل أحواله مأتما ليس ينساه أبدا. ولم يغب عنه خلاله فزعُ الإنسان من الموت والموت ملاقيه لا محالة! لا، ولا غاب عنه عجز ابن آدم وضعفه في رد القدر!

كان ينظر إلى حبل المشنقة في عنق الرجل، وهو يشهد بعين وجدانه أن هؤلاء الحاضرين جميعا سوف يأتي يومهم الذي تنقطع فيه أنفاسهم واحداً واحداً!

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد!

وكم من قاض حَكَمَ بالموت شنقا على عشرات الناس، بالحق أو بالباطل؛ فجاء اليوم الذي عُلقت فيه رقبته هو أيضا على المشنقة! ومات بما حَكَمَ به من قبلُ على الخلق مراراً! ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يُوسُف:٢١)!

ومما أساء فتحَ الله وآلَمَهُ -بعد هذا الحدث الكئيب- خوفُه أن يشتهر في المدينة بكونه "ملقنا روحيا" للمحكوم عليهم بالإعدام، فتتأثر مجهوداته الدعوية سلباً! ولم يزل قلقُه كذلك إلى أن طُلب مرة أخرى لتلقين محكوم آخر. فكان مما خفف من وطأة تورطه في هذه المهمة الثقيلة، صدور قرار بمنع نصب المشانق أمام الجمهور.

كان اسم الشخص الذي حُكم عليه بالإعدام هذه المرة "محمد".. وكانوا يُطلقون عليه لقب "مَمُو". كان الطبيب الرسمي من مدينة "سُوفيَا" عاصمة بُلغاريا.. كان فتح الله جالسًا في الحديقة الداخلية للمحكمة. وكان يجلس أمامه القاضي، والمدعي العام، ورئيس الشرطة العسكرية.. عندما جاء الطبيب الرسمي قال: "هل أتى القسيس؟".. رغم أنه كان يرى فتح الله بجبة الإمامة! فشعر الإمام بألم شديد كالطعنة في خاصرته، لكنه أسرّها في نفسه ولم يبدها لهم، ثم ذهبوا إلى السجن جميعا.

ونظر فتح الله ببصيرته الوهاجة إلى المتّهَم.. كان يبدو فتى ذا ناصية طاهرة، وعينين بريئتين، فلم يقتنع الإمام أن هذا الفتى كان قاتلاً!..

عندما رأى المتّهَمُ القاضي ومن معه بدأتْ رِجلاه ترتجفان بشدة، ثم جعل يتهاوى إلى الأرض، وكأنما أُصيب بشلل!.. فأجلسه أحدهم على أريكة.. واقترب منه الإمام فبدأ يقول له: "يا محمد! هذا قَدَرُ الله!.. لقد وافق مجلس النواب على قتلك شنقا! ولا محيص من قَدَرِ الله!.. فأنت ميّت في سبيل الله إن شاء الله!.. يا محمد! اجعل يقينك في الله! ولا تلتفت إلى ما سواه، فجميع الطرق من غير طريقه مسدودة!"

ثم سأله بلطف: هل تريد أن تَتوضأ؟"

فأجاب: "نعم!" وشرع المسكين في الوضوء، حتى إذا بلغ غسل رجليه خارت قواه، فما استطاع إتمام الوضوء!..

هذا المشهد الكئيب احترقت له كبد فتح الله! ونُقش في ذاكرته، ثم لم يزل يذكره طيلة حياته!

ومباشرة بدأ يلقنه: "آمنتُ بالله وملائكته وكتبه..." فكان يقرأ منها قليلاً فتغص الكلمات في حلقه، وكأنها تنمحي من ذاكرته بسرعة!.. في هذا الأثناء بدأ يكرر: "أرسلوني إلى المستشفى الرسمي مرة أخرى..!"

وجعل فتح الله يتفكر في هذه اللحظات الرهيبة وفيما يطلبه المحكوم المسكين! كان يسائل نفسه: "وما الفائدة من إرساله إلى المستشفى الرسمي؟ فعلى الأكثر سيُؤجَّل تَنفيذ إعدامه مدة قصيرة! وربما سيعيش أسبوعا أو أسبوعين؟".. هناك أدرك الفتى جيّدًا قيمةَ الحياة! وخسارة تبذير أيامها المعدودة في الضياع!.. كان يعيش تلك المواجيد الروحية بألم يمزق أحشاءه خفية، وكأنه هو المحكوم بالاعدام وليس الفتى الذي أمامه! إلى درجة أنه صار يتخيل وكأنه سيشنق بعد قليل!

وعلى الرغم من مضي سنوات على هذا الحدث الأليم، فقد كان فتح

الله يشعر بتجدد جرحه كلما ذكره!.. كان جناحه العطوف قد انخفض بحنان شديد على المتهم "محمد"! كانوا يقولون بأنه قَتل راعيا! وأثناء الشنق علقوا في عنقه لائحة تحتوي هذا الاتهام فقط! لكن فتح الله لم ير في وجهه سيماء مجرم قط!

الجلاد هذه المرة كان ثَمِلاً إلى درجة أنه ما استطاع الوقوف مستويا على قدميه! فلما اقترب من المحكوم انهار إلى الأرض..! وهنا وثب الطبيب الرسمي إلى المنصة وصار يؤدِّي دور الجلاد! أما المحكوم عليه "محمد" فكان ينظر إلى ما حوله نظرات تتلظى بالحزن والأَسَى!.. فكانت تتمزق لها كبد فتح الله! وكأنما هي رماح تنغرس فيها تترى!..

عندما أدخل الطبيب حلقة الحبل في عنق الفتى، وقصد الكرسي بيده ليدفعه؛ هز الفتى رجليه قليلا وكأنما هو يساعد الطبيب على التنفيذ! فاهتز مرة أو مرتين ومات..! كان طبيبا غريب الأطوار! فقد أتقن فن القتل شنقا بدقة وكأنما هو درس تلقاه في كلية الطب! وضع حبل المشنقة في عنق الضحية بإتقان، وأحكمه عليه بسرعة، ثم دفع الكرسي بركلة واحدة موافقاً لقواعد القتل وأصول الإعدام! فما أغرب أمره! أي طبيب كان؟!

العقبة الثامنة: وسوسةٌ على نار التصفية!

الشخصيات العبقرية تُتْعِبُهَا عقولُها! ورُبَّ عقلٍ أورد صاحبَه المهالك! فالسرعة التي يجري بها الفكر، والقوة التي يطوي بها المسافات الزمانية والمكانية تجعله يقف على حدود اللامعقول.. وهنالك تبدأ محنته ويشتعل عذابه! فالعبقرية تأبى على نفسها التوقف، لكن الخطى تنهار بمحاولة عبور بحر المستحيل! وكل من حاول غرِق في غيابات الجنون، أو رده

الموج الغاضب فضربه بقوة على صخر الشاطئ حتى تتحطم أضلاعه! فيتذكر أنما هو قطرة ماء في جرة من طين! وما كان للقطرة أن تستوعب مملكة البحر ولا كنزه الدفين!

الوسواس نقمة وعذاب لعتاة المستكبرين، فلا تزال جماجمهم تتحطم تحت مطارقه حتى يكونوا من الهالكين! وهو للمؤمنين السالكين لطمة من لطمات الرحمة وصعقة علاج من برق النعمة، وهو لقاح لخفقان القلب المحب حتى يستوي سيره على بوصلة محبوبه!

بعد التمكن من علوم التعليم العتيق، تفتق عقل فتح الله على كتب الأدب والفكر والفلسفة، وانطلق في مغامرة جديدة من نوع آخر! ولم يزل يصحب الفلاسفة والأدباء في خلواته، يطوي مراحل التاريخ وطبقات الزمان طيا؛ فيتفرس وجه هذا أو ذاك في ضوء شمعته الصغيرة، منصتا إلى درس عالم أو مناقشا لنظرية فيلسوف حتى صار من مخزونه الفكري ما يضاهي مخزون مكتبة واسعة مزدحمة الرفوف والأركان! ولم تزل رحلته بين مسالك الكتب ترتقي به -عبر منازل المعرفة بالحياة والإنسان والكون- ما جعل أُفُقَهُ المعرفي يتسع إلى درجة بَزَّ فيها كثيراً من المتفلسفين، ورد أباطيل سفسطتهم!

لكن مسلكه الفلسفي لم يكن مُعَبَّداً، بل كان ممتلئا بالأشواك! ولِمَ لا؟ فالمحبوب يغار على حبيبه! وضرب البرق معراجه الروحي فتزلزلت مدارجه! ولم يزل السالك يُثَبِّتُ أقدامَه شهورا خشيةَ السقوط حتى رشح الغيم برذاذ السلام فسكنت مواجعه!

ما أن أكمل الشاب العابد رواية فلسفية لأحد الكتاب الأتراك -وهو مُخْتَلٍ بنافذته- حتى شعر بقلبه يخفق خارج قفص صدره! كانت الرواية

تتبنى التصور الداروينى للوجود البشري، وكان المؤلف قد صاغها بأسلوب فني خاص بحيث يجعل القارئ يتلقاها جرعة جرعة إلى النهاية، حتى إذا كان في آخر الصفحات وجد خمرتها قد أسكرت قلبه، وأيقظت عليه فتنة وسواسه. ودخل فتح الله في صراع مرير مع الشطيان، لكن هذه المرة ليس عن طريق السلوك الروحي؛ وإنما عن طريق الجدل العقلي والحجاج المنطقي، والسؤال المتسلسل الذي لا يلد إلا سؤالاً!

كان ضغط الداروينية آنئذ في العالم كبيراً! وقد انزلق بتلبيساتها عدد كبير من الشباب والمفكرين، وضلت بهم التيارات الإلحادية فلا يهتدون سبيلا؛ إلى درجة أن بعض علماء الإسلام جعلوا يفكرون في تأصيل تصوراتها في القرآن والسنة! ومن ثَمَّ فقد عانى الفتى من ذلك الكثير..! تلك كانت هي الهزة العقلية الأولى، وأما الثانية فقد زلزلته وهو يؤدي واجب الخدمة العسكرية في مدينة "إِسْكَنْدَرُون" في الجنوب الشرقي من بلاد الأناضول، قريبا من حدود سوريا. هناك صاحَب كتب الفلسفة أيضا زمنا، فورَّثته وسوسة قاتلة، وأسئلة محيرة حول بعض شؤون الربوبية! وفي جميع الأحوال، سواء ما أصابه بخلوته في "أَدِرْنَه" أو في "إِسْكَنْدَرُون"، فإن أصول إيمانه لم تتزلزل، ولم يزل ثابتا -رغم معاناته- على صلاته وأذكاره ودعواته!

وتفنن الشيطان في تعذيبه، فكان كلما كبر للصلاة أتاه اللعين من كل جهاته، ورماه بالوساوس المتسلسلة، حتى إنه ربما فكر في الخروج من الصلاة طلباً للنجاة من عذاب عقله وآلام روحه. ولقد اشتدت به الفتنة يوما إلى درجة أنه فكر لو صعق نفسه بتيار كهربائي، عساه يقطع صلته بالماضي كله.

لكن فتح الله -مع ذلك- ما يئس ولا فقدَ الأمل. فلم يزل مستغرقا في الدعاء والابتهال إلى الله حتى تجلت عليه الرحمة بنور السكينة، وجمال الطمأنينة فانكشفت الغمة! وخرج الفتى من المعركة منتصراً بإذن الله، ورأى الشيطانَ كيف سقط صريعا على الأرض، وكيف جعل يتمرغ في التراب نادبا هزيمته الشنيعة! وتلقى الشاب بذلك الامتحان لقاحا قويا أكسبه مناعة يقينية لم يزل يتغذى منها العمر كله! عندما حاول الشيطان أن يوقظ وسواسه مرة أخرى وجد جذوره قد احترقت! فضحك فتح الله منه ساخراً، وقال له: "لا تُتعِب نفسك يا ملعون! فتلك أبواب قد أقفلتها إلى الأبد!" وتولى اللعين خائبا مدحوراً!

وكان للنصر العظيم الذي أحرزه فتح الله في هذا الامتحان النفسي العسير، غنائم ثمينة ووفيرة! فبالإضافة إلى ما ربحه من الرسوخ الإيماني على المستوى العقلي، واليقين الشهودي على المستوى الروحي؛ جائزةً من الله ومنةً على ما جاهد وصبر؛ فإنه ربح أيضا معرفة دقيقة بمسالك الفلسفات الإلحادية وتناقضاتها، وخبرة بثغراتها وتلبيساتها؛ حتى إنه صار بعد ذلك من أعرف المفكرين بها، فكانت ثمرة تجاربه تلك عددا من الكتب والدراسات في نقض تُرَّهاتِها وأوهامها تحذيراً للأجيال من الانسياق وراء تلبيساتها. وأرسى للشباب قاعدة ثمينة في علاج الوسوسة تشد إلى مثلها الرحال.. قاعدة هي نتاج معرفة علمية وخبرة تجريبية، وهي أن الوسوسة -كلما خطرت خواطرها- وجب أن تقبر في مهدها، ولا تترك لها الفرصة لتعيش وتتناسل، وإلا صارت مرضا ووسواسا قهريا! يجب أن يكتسب المؤمن لقاحا فطريا ضدها، يقوم بوأدها في أعماق نفسه وهي ما تزال مجرد خيال عابر!

وأدرك فتح الله بعد نجاته أن الإيمان -في حقيقته- هبة من الله ومنحة، وأن الإنسان عاجز عن اكتسابه بجهده العقلي والروحي، وأن المؤمن من الناس عاجز عن ضمانه والحفاظ عليه؛ وإنما جعل الله للبشرية أسباب الإيمان الفكرية والروحية مسالك ابتلائية؛ مَنْ طرق أبوابها بإعلان الفقر إلى الله انفتحت له وإلا كان من المحرومين... فتلك نعمة لا يهبها الله إلا لمن أحبه! وشاهد فتح الله عجزه وفقره معاينة، ووجد أن مجاهداته ورياضاته، وجميع ما اكتسب من معارف وعلوم، كل ذلك تبخر ولم يعد يجدي في دفع وسوسته شيئا، وأدرك المعنى العميق لحقيقة: "أنه لا ملجأ من الله إلا إليه"، و"أن القلب الذي لم يثبته الله فلا ثبات له من دونه" ووجد أن نجاته إنما كانت بالدعاء والبكاء تضرعا إلى الله!

العقبة التاسعة: على مسلك العلماء العُزَّابِ!

كما أن الزواج قَدَرٌ فإن العزوبة أيضا قَدَرٌ! ورغم أنه ليس من الواجبات العينية في الدين؛ إلا أنه سنة الله في الخلق أجمعين، وشرعة نبينا محمد سيد المرسلين، عليه أزكى الصلاة والتسليم. وللفقهاء فيه تفصيل وتأصيل. وتَرْكُ الزواج -بقصد الزهد والتعبد- خروجٌ عن فَلَكِ السير النبوي إلى الله، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان. ورغم ذلك فكثير من علماء الأمة الكبار لم يتزوجوا، حتى اشتهروا بلقب "العلماء العزاب!" والمقاصد لها تأثير في الأحكام. والحقيقة أنما هم "علماء المحنة!" فأغلبهم كان تفضيله للعزوبة راجعا إلى طبيعة الزمان الذي عاشوا فيه، أو إلى طبيعة المهمة التي تحملوها، أو إليهما معا. فقد مضى على الأمة حينٌ من الدهر كانت في حاجة إلى بناء أركان العلوم، فتفرغ لها علماء مخلصون، أسهروا عيونهم في تسويد المجلدات بالليالي الطوال، وأرهقوا أقدامهم سيراً في رحلات

الطلب، وخاطروا بعبور أهوال المفاوز والقفار من أجل جمع تراث الأمة وحفظ ذاكرتها! فلم يزالوا يفنون أعمارهم ما بين جهاد وتصنيف حتى ما بقي للزواج في حياتهم وقت ولا نصيب! وعلى هذا الطريق ارتفعت أعلامُ أئمةٍ كبار من العلماء العزاب، كشيخ المفسرين أبي جعفر الطبري، والإمام الزمخشري، والإمام النووي.

ثم جاءت أزمنة المحن! فدشنها الإمام ابن تيمية -وهو الفقيه الحنبلي الصارم- بالتزام عزوبة قهرية! وأنى له أن يتزوج في ظلمات السجون، أو في متاهات المنافي؟ ولم يكن له في حياته قيد شبر من الوقت لاتخاذ سكن مريح! وكيف يتزوج بديع الزمان النورسي في زمن المشانق والمحارق؟ كيف؟ وقد كان قَدَرُهُ أن يعيش طريدا شريدا بين شواهق الجبال مع الأوابد! وعلى معالم الطريق جاء الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله! فأبى أن يتيح للطغاة نقطة ضعف واحدة -وهو الشاعر الحساس!- يطوون فيها ذراعه! فما اتخذ زوجة يهتك عرضَها الزبانية، ولا بنات يخطف براءتَهن الوحوشُ الكواسر! وخرج إليهم وحده حاسر الرأس يقاتل بالكلمة الملتهبة حتى الشهادة!

لكن فتح الله لم يكن يلغي فكرة الزواج من ذهنه مطلقا، إلا أنه لم يشغل بها باله إشغالا! ولذلك لما فاتحه الخال "حسين طوب" في الأمر، تردد ثم قبل على خجل! لكن على أساس أن القضية -كما أخبره خاله- هي أن أسرة من الأسر العريقة بأَدِرْنَه، جمع الله لها بين غنى وصلاح، قد صرح أبوها برغبته في تزويج ابنته منه.

عندما ذهب الرجلان للخطبة كان اليوم يوم عيد.. لكن فتح الله مذ دخل البيت واستوى على أريكة الصالون، وهو يغرق في عرق الخجل!

ولم يزل مطأطئ الرأس، لا يكاد يرفع بصره من الأرض إلى أن خرج! حتى إنه لا يذكر أنه رأى شيئا مما حوله البتة، لا من الناس ولا من الأشياء! لكن الصدمة كانت شديدة جدا عندما علم أن الجواب كان سلبيا! ووقع الاعتذار إليه بأن خبر التزويج كان مجرد خطأ في البلاغ، أو سوء فهم في التلقي من لدن الخال حسين!

وصَرَفَ الفتى عقلَه ووجدانَه عن التفكير في الزواج مطلقاً. لم يكن ذلك رد فعل على الخطبة الفاشلة، ولكنه في الحقيقة كان تفكيرًا جديدًا، لم يزل يتبلور في ذهنه شيئا فشيئا، متفكرًا في طبيعة مسلكه الصعب، وفي ظروف الزمان وأهله؛ حتى قرر الإضراب الكلي عن اتخاذ زوجة، والتفرغ الكامل لخدمة الدين والدعوة الإسلامية. فصار ذلك جوابه الثابت لكل من يعرض عليه فكرة الزواج.

عندما عاد إلى أرضروم بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، تحامت عليه الأسرة: أبوه وأمه وعمه "أنور" وأخته الكبرى، كلهم يلحُّون عليه بترك حياة العزوبة، والدخول في قفص الزواج! كل منهم جعل يستدلّ له بأدلته على ضرورة الزواج! لكن أحدا منهم لم يستطع إقناعه تغيير موقفه الحاسم! أما والدته فقد قالت له معبرة بالمثل التركي: "يا بني إننا نريد أن نربط رأسك، ونحن ما نزال على قيد الحياة" فأجابها: "يا أماه أنا مربوط القدمين بدعوة الإيمان وخدمة الإسلام، فإذا ربطتم رأسي أيضا فكيف أتحرك؟"

والحقيقة أن أسف الأسرة كان بليغا! فقد كانت محبة فتح الله شجرة خضراء تضرب بجذورها الرطبة في قلوبهم جميعا! وفي الأخير قال له عمه: "تدبر ما تقول يا فتح الله! إننا الآن نلح عليك بالزواج إلحاحا، وأنت في الثانية والعشرين من عمرك، ولعلك ستتلقى إلحاحا مثل هذا

عند بلوغك الثلاثين! لكن كن على يقين يا فتح الله! فإنك لن تتلقى -بعد ذلك- طلبا مثل هذا في حياتك!"

ولقد صدق عمه! فعند بلوغه الثلاثين بالضبط -وكان آنئذ في مدينة إزمير- جاءه الأستاذ "يَشَار هُوجَا" يعرض عليه الزواج من فتاة اختارها له بنفسه، فلما اعتذر بأنه لا يفكر في الزواج أصلاً؛ ألح عليه الأستاذ إلحاحاً! فوجد نفسه مضطرا لرد طلب أستاذه المحبوب برفق لا يخلو من قوة وصرامة! فقال: "إنني لا أريد أن يرفرف أمام عيني عَلَمٌ سوى عَلَمِ خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن قضاياه!" وأصر على موقفه إصرارا؛ حتى إن الأستاذ "يشار" قال بأسًى شديد: "إذا لم تكن أنت تسمع كلامي فمن سيسمعه إذن؟!" واغرورقت عيناه بالدموع، فبَكَى الرجلان معاً!

وتذكر الفتى آنئذ قول عمه أَنْوَر، وعلم أنها ستكون آخر فرصة للزواج، ففكر في حاله وحال زمانه؛ ثم اختار مرة أخرى مسلك العزوبة! كانت المحن قد اشتدت مرة أخرى ببلاد الأناضول، وفُتِّحَتْ فوهات السجون المظلمة؛ لابتلاع طلاب النور وسائر الدعاة إلى الله! فرجح فتح الله ألا يكدر حياة امرأة بزواج لا تكاد تسكن إليه حتى يُختطف منها، وألا يجرع أطفالاً أبرياء أَلَمَ التجويع والترويع كلما قرعت الشرطة الأبواب في غسق الليل، أو كسر الجنود رتاجه بأعقاب السلاح! وفتح الله وإن كان أسداً في الوغى فإنه إزاء الأحبة شفوق ودود!

ودخل الرجل امتحان العزوبة فرداً! وإنه بالنسبة لِشَابٍّ قوي مثله، كاملِ الرجولة والفحولة، لَامْتِحَانٌ عسير! حتى إذا بلغ من عمره الأربعين عَبَرَ خاطرٌ خاطفٌ بخياله، وهو منهمك في تصبين ملابسه -وقد تكاثرت عليه وثقلت- فضاقت بها نفسه: "أوَ لم يكن خيراً لو كنتُ تزوجت؟" فلما

كان اليوم التالي طرق بابه أحد أحبائه في وقت مبكر، فقال له: "أَبْشِرْ يا فتح الله! لقد رأيت الرسول ﷺ أمس في المنام في أمرٍ يخصك! لقد أقرأك السلام! وقال: أخبروا فتح الله أنه لو تزوج فسيموت! وإنني -لو يفعل- لن أحضر جنازته!" وما كان فتح الله ممن يعملون بالرؤى في الأمور الشرعية والقضايا المصيرية، لكن هذه الرؤيا وافقت قراره واختياره، وطردت وسواسه، وزادته تشجيعا على متابعة الطريق!

ولقد تبين -فيما بعد- أنه فعلا لو تزوج لَمَات... فحياته ارتبطت بدعوة عظيمة، واندمجت في خدمة جليلة... فعلى كاهله بنى الشباب المؤمن بكل بلاد الأناضول مدارسهم ومساجدهم... وعلى تلال قلبه الزمردية أنشؤوا خلواتهم ومخيَّماتهم... فصار أبا لكل أطفالهم ونسائهم... ولو كان تزوج فعلا لتحطم كل شيء... ولو تحطم من دعوته شُرْفَةٌ واحدةٌ لانهار ومَات!

* * *

تلك عقبات السير التسع، التي اجتازها فتح الله بمدينة أَدِرْنَه، فخرج من نارها سالماً بإذن الله! ولذلك لم تكن هذه المدينة المبتلاة في حياة الفتى سوى مدرسة إعدادية، أَهَّلَته روحيا للدخول في عواصف النار والدخان، والصبر على ضناها وبلواها. لقد كان فتح الله -وهو في أول شبابه- في حاجة إلى هذه الزلازل الروحية والنفسية والبدنية قبل قيادته لمعركة التحرير!

.....

عندما كان الفتى يكابد مدارجَ السنة الثالثة بمدينة أَدِرْنَه، توصل بقرار التجنيد الإجباري من القيادة العليا للجيش بأنقرة. وهناك بنافذته الأثيرة،

جلس لحظات يتفكر في مسلك غربته المريرة وطريق هجرته الطويل. وما كان أشق عليه من توديع مسجده الأثير "ذي الشرفات الثلاث"، ومفارقة رفاقه بأَدِرْنَه، وترك مجالس دعوته، ومعارج روحه!.. ولكن لكل شيء أجل!

لقد أدرك فتح الله أن قرار التجنيد العسكري الذي بين يديه الآن، إنما هو إِذْنٌ رباني بدخول تجربة أخرى، واقتحام عقبة بعد عقبات، من أجل إتمام الكلمات، في طريق التأهيل لمقام الإذن الأكبر!

وخرج فتح الله من أَدِرْنَه يحمل محفظته الصغيرة، دون أن يكتشف أحدٌ من أهلها سِرَّهُ... خرج منها صندوقاً مكنوناً كما دخلها أول مرة... فأوان البوح لما يئن بعدُ أوانُه..!

وَفَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!